دلبتا

نبذة تاريخية

للخوري بطرس روفائيل

تنشر هذا البحث الدقيق في بادة دلبتا نموذجاً للتواريخ الخاصة ، متمنين على مؤرخينا الكرام ان يسيروا على اسلوبه ، فيفردوا ، كلٌّ لبلدته ، نبذة مسهبة مستندة من جهة الى الصكوك والسجلات ، ومن جهة الى مرويات التقليد قبل ان تذهب بذهاب اصحابها ، عارضين كل ذلك على الاصول النقدية . فيتمكن من يأتي بعدهم من وضع تاريخ علمي دقيق لبلادنا . وهو ما تفتقر اليه كل الافتقار . (المشرق)

توطئة

الله

ما سوّل لي الإقدام على هذا البحث رغبتي في افادة مواطني ، وولعي في خدمة التاريخ ، وتشويق الادباء الكتبة في القرى اللبنانية الى ان ينسجوا على هذا المنوال ، فينجم عن اجتهادهم وعنايتهم معرفة مناشئ أسر الوطن واصولها وفروعها وانسابها ومشاهيرها وتكاثرها وانقراضها ، فيهون بعد ذلك على مؤرخ بصير طويل الباع ، متوقد الذهن ، واسع الاطلاع ، الاستفادة من دروسهم وجمع أشتاتها ، لينفخ الوطن العزيز بتاريخ تامّ كامل الصفات المطلوبة .

وقد اعتمدتُ فيما كتبته ، فضلاً عما وجدته مذكوراً في الصكوك والوثائق القديمة التي بيدي ومُثبتاً في بعض كتب المؤرخين ، على مخطوطتين للمرحوم الخوري منصور الحتوني الدلبتاوي ، صاحب تاريخ المقاطعة الكسروانية المطبوع . والمخطوطتان المذكورتان تخصّان الوجيه السيد بولس عبد الله الخوري الحتوني . عنوان الاولى منهما « كتاب سجلّ كنيسة مار يعقوب المقطّع في قرية دلبتا واوقافها » جمعه المؤلف وقسمه الى مقدمة وثلاثة فصول . عدد صفحاته ١٠٦ ،

صورة حيّ بن يقظان في جزيرته

عن حفر خشبي للآنسة كنت (Kent)

من كتاب *The History of Hayy ibn Yaqzan. London, 1929.*

وعدد السطور في كل منها يتراوح بين ٢٥ و٢٨ سطراً. لا تاريخ له في اوله ، اما الصك الاخير فيه فمؤرخ سنة ١٩٠٦ . وعنوان الثانية « نبذة تاريخية في الميال الدلبتاوية »، وهذه ايضاً لا تاريخ لها في اولها ، غير ان من طالعها رأى ان مؤلفها قد اوقف قلمه فيها سنة ١٨٨٣ . عدد صفحاتها ١٣٥ ، وعدد الاسطر في كل منها يتراوح بين ١٩ و٢٠ سطراً. تقسم الى قسمين ، ففي القسم الاول بحث عن اصل الميال الدلبتاوية (صفحة ١ الى ٩٠) ، وفي القسم الثاني بحث عن كنائس دلبتا واوقافها (صفحة ٩٠ الى ١٣٥) . لكن يداً اثيمة قد سلخت ، لسوء الحظ ، بعضاً من صفحاتها ، خصوصاً فيما يتعلق بعائلة روفائيل ومنشأها وفروعها ، وقطعت بسكين او مقصّ سطرين او ثلاثة من كل صفحات هذه الكراسة ، مما ضعضع الموضوع وشوّش المعنى فيها .

وليثبت صاحب النبذة للقارئ ان ما اوردَه لم يكن الا بعد طول التحري والتنقيب ، قال في المقدّمة :

« اني ما قنعتُ ولا اكتفيت برواية وتناقل الاخبار من السلَف الى الخلَف بل بحثت وعوّلت على مطالعة الصكوك القديمة التي قد عثرت عليها وتلقيتها شاهداً كلّي الصدق لا يمكن للخصم تحريفها ولا للمعترض تزييفها . . . اذاً ارجو ان تتلقى يا اخي الاديب ما وقفته هذه النبذة على سبيل صافي السريرة والطوية والاستقامة المسيحية لان غايتي فيها افادة القريب ومجد الله الرقيب » . اه

وقد اشرتُ الى المصادر التي اعتمدت عليها الا ما نقلته عن اوراق قديمة مبعثرة ، وقد يكون فرّط فيها اوردته من التحقيقات التاريخية والجغرافية والاحصائية سهو او تقصير ، فالموضوع شاقّ والطريق وعر لعدم وجود الوثائق الكافية ، وفي ذلك تمهيد للعذر عما قد يشوب هذا المقال من النقص ، ورجاء ان يُرشدني الادباء ذوو النقد الى ما زلّ به اليراع القاصر . فان مَن يعترف بعجزه فذنبه مغفور ، والله المسؤول ان يرمقني بعين عنايته ، انه السميع المجيب !

الفصل الاول

موقع دلبتا ومناخها وحالتها الاقتصادية والعمرانية

دلبتا قرية من قرى كسروان أُطلق عليها هذا الاسم لكثرة اشجار الدلب التي كانت فيها ، وقد تلاشت بفعل سيل هائل حدث سنة ١٨٦٢ ، فاستأصلها. انما لم يزل بعض منها في المكان المسمى « الوادي » .

هي قائمة فوق قضبة غزير ، شرقيها ، وبعيدة عنها بالسيارة نحو ربع ساعة. وبالقرب منها ، من الجهة الشرقية الجنوبية ، قلعة قديمة تُعرف « بقلعة معراب» يُستدلّ من ضخامة حجارتها وطريقة بنيانها انها من عهد الرومان . وقد تكون الزلازل قوّضتها ، او ان احد الملوك الفاتحين دمّرها . مساحة ارضها واسعة جدًّا وتُعدّ من هذا الوجه من القرى اللبنانية الكبيرة . اسفلها يعلو سطح البحر نحو ٥٥٠ مترًا ، واعلاها ينيف على ١٠٠٠ متر . غير ان علو معظم بيوتها يتراوح بين ٦٥٠ و ٧٥٠ مترًا ، واهلها يقولون عنها ان « اولها ساحل وآخرها جرد » . فهذا البون الجسيم في درجات ارتفاعها جعل سبلها صعبة شاقة ذات سلالم واقفة ، الا ان فيها طُرُق عربات تريح القادمين اليها من الخارج ، منها طريق دلبتا - غزير - جونية ، وطريق دلبتا - عرامون - الكفور - يحشوش. وشُقّت حديثًا طريق ثالثة تربطها بغسطا وريفون وميروبا .

ينابيعها غير غمرة ، شحيحة ، لكنها عديدة تُربي على العشرين . وماؤها عذبٌ للغاية ذو برودة معتدلة خفيف هضام ، وعُرف من الفحص الكيماوي انه خالٍ من السلفات ، وان المادة الكلسية فيه قليلة جدًّا ، وهو منظّف للامعاء . وقد اكّد لي بعض المصطافين الذين خبروهُ وخبروا مياه اوربّة ان مفعوله في المعدة اشبه بمفعول ماء ڤيتّل (Vittel)

مناخها موصوف بالجودة سيما في الجهات العالية منها ، ويؤمّها طلّاب الاصطياف وفي مقدّمتهم النازحون عنها من اهلها . تراها محاطة من جهاتها الاربع بغابات السنديان والعفص وغيرهما ، مكلّلةً قُمَمها باكليل من الصنوبر ،

مما يجعل هواءها نقياً نشيطاً ، فلا تدخل الامراض المويئة ساحتها ، بل اذا اتاها مريض من الخارج شفي بمدة يسيرة . وسكانها يعمرون ، وقد كان فيها ، في سنة الحرب الكبرى ، نحو مائة شخص بلغوا سبعين وثمانين وتسعين سنة ومنهم من بلغ المئة واكثر .

ان الداخل اليها يراها واقعة في سفح جبل ينتهي بواد عميق ضيق مشرف على البحر ، فيقف مدهوشاً من جمال مناظرها الخضراء ، فاني اتجه بصره عين الغابات النضرة واشجار الصنوبر الضخمة الاصول المشوقة القد ذات الرؤوس المنروشة كالمظال ، ويبتهج الاوربيون خاصة بمشاهدها لانها تذكرهم بجبال بلادهم المشجرة . يدخل اليها من جهة غزير بضيق يسمى « المد » ان كمن فوقه ثلاثة او اربعة رجال اوقفوا عسكراً ، كما حدث سنة ١٨٦٠ ، وسيأتي خبر ذلك في غير هذا المكان . وتحت « المد » واد جميل اخضر ينسل حتى شتمير ، فجونية ، فالبحر ، وهو اشبه بوادي قاديشا . نعم انه دونه عمقاً ، لكنه يضاهيه جمالاً بسبب غاباته واتصاله بالبحر .

الثمار فيها متنوعة وكافية لسد حاجات سكانها منها الاجاص ، والتفاح ، والليمون ، والفرجل ، والخوخ ، والدراق ، والمشمش ، والتين . والزيتون فيها ليس بيسير . اما حاصلاتها فهي الخشب ، والعنب ، والحرير .

قلنا ان الغابات تحيط بها من كل الجهات فيقطع السكان اشجارها بكل حذاقة فلا تلبث ان تنبت وتنمو ويصدرون اخشابها كحطب للوقود ، او يقيمون « المشاحر » اعمل الفحم فينقلونه للخارج . وهذا مورد لا يستخف به للعملة ولاصحاب الاملاك .

والعنب فيها كثير جداً وهو على الجملة من النوع المسمى « المرواح » وهو كثير العصير يستخرجون منه الدبس لمؤونة البيوت في الشتاء ، والعرق ، والنبيذ الفاخر ، فيتجرون بها . وعند بعض الملاكين اشكال من النبيذ الذهبي الممتاز يشبه الخمراء بنبيذ « كرم المروس » في بكفيا .

وكان للحرير المنزلة الاولى قبل الحرب ، فكان الاهلون يهتمون كل الاهتمام بزراعة التوت وحراثته وفلاحته حتى صار غضاً كثيفاً حول البيوت

كالنابات ، واذا ما قدم القرية زائر غريب اعتقد ان التوت ينمو على الماء مع انه « بصل » في التالب ، وكان يثمر سنوياً من الفيالج نحو ١٥ الف اقة . اما الآن فقد تبدّل الامر فلا يغلّ اكثر من ٤ آلاف اقة لان الحرب قد اتلفت الكلّ : الناس ، والارض ، والتوت .

عدد سكّانها تجاوز الاثنين مات الثلث منهم في الحرب الكبرى ، والثلث الثاني يعيش في بلدان المهجر ، والثلث الآخر باقٍ في الوطن مشتّتاً بين دلبتا ، وجونية ، وبيروت ، واكثر المهاجرين يقيمون في القطر المصريّ ، وجزيرة كوبا ، والولايات المتحدة ، وفنزويلا ، والبرازيل ؛ وبينهم من اسس بيوتات نالت شهرة بعيدة في عالم التجارة . عدد منازلها قبل الحرب نحو ٣٠٠ ؛ اما الآن فلم يبقَ قائماً منها سوى ١٢٠ منزلاً تقريباً .

عُرفت دلبتا قبل الحرب بغنى اهلها ، فلُقّبت « بينك كسروان » ، ودُعيت ايضاً « ضيعة ربّنا » في ايام المثلث الرحمات البطريرك يوحنا الحاج ، لان البطريرك المذكور كان منها . ومنها ايضاً مطران الابرشية ، سيادة الحبر المفضال يوحنا مراد رئيس اساقفة بعلبك ، وخرج منها حينئذٍ نحو ٤٠ كاهناً بين قانوني وعلماني كانوا متفرقين في الاديار والمدُن .

اكثر اهلها مثقّف ، وفيها رجال عديدون يستحقون الذكر ، اما لعلومهم واما لمراكزهم الادبية او التجارية . ومن حسنات سكّانها انهم ذوو ضيافة يحبون الغريب كثيراً وينتحون له ابوابهم على مصاريعها ، ولا يغادرهم مصطاف الا آسفاً لما يجد فيهم من الانس وكرم الاخلاق .

فيها دورٌ قديمة وحديثة عامرة متقنة في الخارج والداخل تنافس بيوت المدن الكبيرة . ومساكنها غير مجموعة وملصقة ببعضها ، بل متفرّقة تحيط بكل منها بقعةٌ من الارض مكشوفة للشمس وللهواء ، مغروسة توتاً واشجار فاكهة تجعل صاحبها مستقلًا في بيته ، ملكاً في رزقه ، لا يخشى اذن الفضوليّ ولا عينه .

ولها مجلس بلدي نشيط راقٍ يهتم بما يقتضيه إنجاح البلدة من الاصلاحات والمشاريع العمرانية ، ويهمة رئيسه السيد الياس موسى روفائيل استقدم مهندس

درس القرية وطاف في كل احيائها ومكث فيها نحو ٢٠ يوماً ، فرسم بيوتها بيتاً بيتاً مع ذكر ارتفاع كلٍ منها عن سطح البحر ، وخطّط فيها من الطرق ثلاث شُعب للسيارات تشقُّها شقًّا ويستفيد منها ، اذا ما تمت ، سكّان انحائها المختلفة. وتوفّق رئيس البلدية المذكور بعد بذله المساعي الكثيرة الشاقة الى ان يقترض من الحكومة مبلغاً من المال حبسه على اصلاح نبع القرية المركزي ، «عين الضيعة» ، وبنائه وتحسينه بمقتضى رسم فني. فكانت نتيجة العمل انه صار من اجمل ينابيع لبنان ، جديرًا بان يُتخذ هدفاً لزيارة السيّاح والمصطافين.

الفصل الثاني

سكانها الاوّلون

سكان دلبتا في الحاضر موارنة . اما في القديم فكانوا غير مسيحيين . بعد ان تمّ الفتح العثماني في اوائل القرن السادس عشر ، خمدت نيران المشاحنات وتوفرت الراحة في لبنان نوعاً ، فاندفق اليه الناس من كل جهة. وروى الدويهي ان السلطان سليم الاول ولّى على كسروان الامير عساف من امراء التركمان ، وامره ان يُحسن سياسة القوم ، ويجدّ في تعمير البلاد . ولكي يسهل عليه تنفيذ مُهمته ، رتّب على كسروان مالاً يسيرًا فتقاطر الناس اليه من كل صوب : أتى المتاولة من بلاد بعلبك ، فسكنوا فارّيا ، وحراجل ، وبقعاتا . وقدم السنيون من البقاع واستوطنوا فتقا ، وساحل علما ، والجديدة ، والقليعات وفيترون . وجاء الدروز من المتن والجرد الى برمانا ، ومزارع كسروان . وكذلك فعل النصارى النازحون من بلاد طرابلس . فان اهل المجدل توجّهوا الى عرامون ، واهالي يانوح الى كفور الفتوح ، ومن يانوح انتقل الشيخ حبيش بعياله الى غزير [1]

قال الخوري منصور : «اما قرية دلبتا فلم أجد من يذكر زمن تجديدها صريحاً بعد خراب كسروان غير ان الصكوك القديمة التي جمعتها من قريتنا هذه

---

١) الدويهي : تاريخ الطائفة المارونية ، سنة ١٥١٥ ، صفحة ١٥٢ و١٥٣

انبأت ان سكّانها الاولين كانوا من الطائفة المحمدية كون غالب هذه الصكوك هي مبيعات من ابناء هذه الطائفة الى النصارى ... وكنت اظنّ ان اسماء الموقعين في الصكوك هي اسماء اشخاص شيعيين سنداً على ما قيل. الّا ان المؤرخ الدقيق البطريرك بولس مسعد اكد لي لساناً ان سكّان دلبتا كانوا من الاسلام السنية . وان في الجيل السادس عشر بعد ان تملّك السلطان سليم الديار الشامية واعتنى في نجاحها اضحى سكان كسروان في سواحله الطوائف التركمانية ، ووسوطه الاسلام السنيين ، وجرود الشيعة ، وعليه تكون الاسامي التي عثرتُ عليها في الصكوك هي سنّية لا شيعية »[1]

فيا ليت صاحب النبذة والسجلّ أصرّ على رأيه الاول ، لان عندي ان سكّان دلبتا الاولين شيعيون لا سنيون وذلك لاسباب :

اولاً لا يطابقُ الحقيقة كلها قولُ الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد ان السنيين سكنوا في وسوط كسروان ، والشيعيين في جرودة ، ونحن نعلم ان السنيين سكنوا قريتي القليعات وفيترون ، وهما من الجرود.

ثانياً ان سكان دلبتا يردّدون الى يومنا بالتناقل انهم خلفوا فيها الشيعيين، والتقليد له شأنه في مثل هذه الامور.

ثالثاً ان معظم الاسماء الموجودة في صكوك مبايع القديمة في دلبتا هي اكثر انتشاراً بين الشيعيين منها بين السنيين ، كاسمعيل ، وعليّ ، وابو علي حسن ، وابو علي ناصرالدين ، وابن عليّ صغير[2] الخ ...

رابعاً في بلدة شمسطار عائلة شيعية تدعى « عائلة الشحيتلي » اي من شحتول ، وشحتول هذه قرية لا يسكنها اليوم الّا موارنة ، وهي من الوسوط لا من الجرود ، لا تبعد كثيراً عن دلبتا . فهذا ممّا ينفي صحة قول البطريرك بولس مسعد . وروى لي احد مواطنيّ ، والعهدة على الراوي ، ان في شمسطار عائلة شيعية تُقسم الى فرعين فرع يدعى « دلباني » والفرع الآخر « دلتاني »

١) السجل صفحة ١ ؛ والنبذة صفحة ٤

٢) اسرة علي صغير لا تزال موجودة في قضاء جزين وهي شيعية . راجع دراني القطوف في تاريخ بني المطوف ، صفحة ٢٥٠

وتعرّف هناك الى رجل شيعي مسنّ ، يسمّى ابا عبّاس الدلبتاني ، اخبره انه علم من والده ان جدّه باع ارضاً له في دلبتا . وعرف ايضاً في جهات بعلبك احمد سعيد الدلبتاوي وهو شيعي .

فحسبنا مما تقدّم ان نرجّح ان سكّان دلبتا الاولين كانوا شيعيين لا سنيّين . اما الزمن الذي قدموا فيه القرية فيظنّ الخوري منصور انه كان بعد تملّك السلطان سليم بثلاثين سنة تقريباً . ومن الصكوك القديمة يظهر ان مدة استيطانهم لها لم تطل اكثر من ٣٥ سنة ، حتى اخذ الموارنة يجاورونهم ويبتاعون املاكهم . واما هم فتزحوا رويداً رويداً الى الجرود ، والى جهات بعلبك . ومن الوثائق التي تُثبت قولنا صكّ محرّر في العشر الاخير من الجيل السادس عشر ، وصكّ مؤرخ في سنة ١٦١٥ . قال الخوري منصور : ومن الصكوك ايضاً « استدللت انه تمّ رحيلهم من هذه القرية في اواخر الجيل السابع عشر ، لان آخر صك من بياعاتهم الاملاك عثرتُ عليه مؤرّخاً سنة ١٧٠٠ . . . فمن بعد هذا الصكّ قد انقطعت دلايل وجود طائفة الاسلام في قريتنا هذه وفي كلّ الصكوك التي وجدتُها بعد هذا التاريخ لم اجد فيها تواقيع لابناء هذه الطائفة قطعاً فنتج لي انه نحو هذا الوقت تمّ رحيل الاسلام منها والله اعلم »[1]

واقام الشيعيون في دلبتا بالجهة المساة الى يومنا « الضيعة » ، وهي تمتدّ من « عين الضيعة » الى الجهة الغربية منها . اما بقية الانحاء مثل « الجورة ، والوادي ، والخرائب » فكانت احراجاً لا يزال آثار منها الى الان . ولمّا اتاها الموارنة قطنوا في الاماكن البائرة المحرّجة ، فبنوا البيوت ، ونقبوا الارض وحرثوها وزرعوها توتاً وكروماً حتى صارت عامرة ، وخصّصوهم الشيعيون ، كي لا يستقوا من نبع القرية المركزي « عين الضيعة » ، ينبع هو اليوم في وسط القرية يدعى « عين المحقن » وكان يسمى قديماً « عين النصارى » . ولا يزال اثر صليب منقوش على احد حجارة الحنية . غير ان هذه الحال لم تدم طويلاً ، فما عتم النصارى ان كثر عديدهم واخذوا يشترون املاك الشيعيين وبيوتهم ، فتزح هؤلاء ، وحلّ اولئك محلّهم .

(للبحث صلة)

١) الخوري منصور : السجل صفحة ١